القول الفصل

محاورة في سعادة الامة (١)

نظر بعض أصحاب الافكار الصافية والعقول النيرة في كتب التاريخ نظر التأمل والاعتبار ووقف على شيء من أحوال الامم في اطوارها وأدوارها من بداوة وحضارة وهمجية ومدنية وقوة وضعف وصعود وهبوط وغلبة وانغلاب ونحو هذا من الصفات المتقابلة والشؤون المختلفة فحدا بهمته النظر بعين البصيرة الى طلب النظر بعين البصر والسير في الارض لمشاهدة آثار العالمين وتطبيق ما يرى على ما علم فضرب في الارض شرقاً وغرباً وخالط الامم عجماً وعرباً واكتنه الاخلاق واختبر العادات وشاهد سير العلوم والفنون ووقف على امهات الصنائع والاعمال وسبر قوى العقول والافكار ثم شرع في المقابلة والتنظير فتجلى له ان الاستعداد الفطري والقوى الطبيعية في تلك الامم واحدة وان اختلاف الحالات لم يأت من اختلاف المدارك والتفاوت في الاستعداد وان انتهى الى درجة يكاد يلتحق بها فريق بالعجماوات ويخرج من عداد الانسان ويرتقي بها فريق آخر عن النوعية الآدمية الى مصاف الملائكة وانما جاء من أمور عارضة وظروف خارجية . وأعمل فكره في معرفة مناشيء هذه العوارض وعلل هاته الطوارىء وارتقى في الاسباب الكثيرة وتبصر في تأثيرها فعرف كيف يمكن اتقاء العوارض المضرة وازالة الطوارىء التي دفعت في صدور

(١) نشرت في فاتحة العدد الثاني الذي صدر في يوم الثلاث ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ هـ

بعض الامم فأخرتها وامسكت بحجزاتها عن التقدم الذي يرشدها اليه الالهام الالهي والقوى القدسية التي منحها الله للانسان . ثم رجع هذا العاقل الى وطنه وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وصار من اطباء النفوس القادرين على مداواة أمراض أمته وعجب لاغفال الجماهير من قومه هذا النظر وهذه السياحة حتى كأنهم عميان وصار يردد في نفسه هذه النصوص (أفلم ينظروا) (أولم يتفكروا) (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

ثم وجه عنايته لتنبيه قومه على ما استفاد في سياحته (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى)

ولما ان جاء القوم للسلام عليه سألوه عن رحلته من حيث سهولة السفر ومشقته وما كان طعامه وشرابه فيه وعن منتزهات البلاد التي زارها فعذلهم بلطف على هذه الاسئلة واعتذر لهم عن نسيانه لهذه الامور وطفق يحدثهم عن معارف البلاد لا عن معازفها وعن مصانعها لا عن مراقصها واطال في الكلام عن الامم المتمدنة وعما رأى فيها من موارد الراحة الساثغة وبرود النعمة السابغة حتى ادهشهم وكان يتكلم عن انفعال وتأثر ، ويشوب كلامه بالتأوه والتحسر ، فأثرت حالته في نفوسهم وحركت منها كوامن الغيرة واحب فريق منهم ان يبحث معه في سعادة الامم وشقائها وشدتها ورخائها ، وهبوطها وارتقائها ، فاعترضه آخرون قائلين ان الكلام في هذا الموضوع يتعب البال ويزعج الخاطر وهو عبث لايفيد شيئاً فان الامر كله لله وليس لارادة الناس أثر في أعمالهم ولا لاعمالهم أثر في منافعهم

بل ليس لهم ارادة أيضاً بل هم في الحقيقة كالريش في الفضاء تصرفه رياح الاقدار المتناوحة وتتلاعب به ولا ارادة ولا اختيار نستغفر الله لانكر الاختيار فانه مذهب أهل السنة ولكن الحقيقة ما قاله بعض المحققين (سني في الظاهر جبري في الباطن) فاجابهم أولئك قائلين: انكم تؤمنون بلفظ الاختيار دون معناه وكأنكم ترون ان حركة اللسان بلفظ الاختيار هي الفصل الذي يخرجكم من عداد طائفة الجبرية الذين اتفق اساطين علماء الملة على فسوقهم من الاعتقاد الحق ونبذهم بلقب الابتداع في الدين

اما علمتم ان الالفاظ لا تدخل في ماهية العقائد وحقيقة المذاهب وان الخلاف في اطلاق اللفظ على معنى متفق عليه يرجع الى الاصطلاح الذي لا مشاحة فيه . أتزعمون انه لا واسطة بين الجبر والقدر وان الذين يسمون أهل السنة هم جبرية في الحقيقة لكنهم لما عجزوا عن الجواب على ما يستلزمه هذا المذهب من تخطئة تشريع الشرائع وانزال الكتب تستروا بلفظ الكسب والاختيار (يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم). حاشاهم حاشاهم ونستغفر الله من هذا الضلال البعيد

فاجابهم السائح العاقل على رسلكم فما هؤلاء بجبرية ولا سنية ولا قدرية ولكن عموم الجهل جعلهم (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) واني رأيت الكثير من امثالهم في سياحتي في البلاد الاسلامية. كنت اذا ذاكرت المصري مثلا في أمر يتعلق بمصلحة وطنية يتوكأ على عكاز الجبر ويقول «هو بيدنا ايه» واذا كلمت سوريا في مثل ذلك

يستند على هذه العصا أيضاً ويقول « شوطالع باليد » وربما اردفوها على سبيل الاحتجاج بهذا النص الشريف (ليس لها من دون الله كاشفة)

كلمة حق أريد بها باطل وتمسكهم بها عرض زائل اذا أيت ان ألمت ملمة بشؤنهم الخاصة كيف يجتهدون بتلافيها بما يستطيعون من الاسباب بل ويتعدون الاسباب الطبيعية الى ماليس بسبب اصلا ويتخذون الوسائل الوهمية التي يأباها الشرع وينبذها العقل كالاستعاذة بالعوالم غير المنظورة من الجن والشياطين والاستعانة بالاموات من العلماء والصلحاء يخاطبون هؤلاء لدى اجداثهم ويستنهضون هممهم بالصياح والصراخ وتقديم هدايا القواتح . ويستنفرون أولئك بالعزائم والطلاسم واحراق البخور في المجامر ويستنبؤن عن حقيقة الامور بخطوط الرمل أو الطرق بالحصا وحبوب القول ويتعرفونها من الدجاجلة والعرافين

فتبين لكم كيف ان هؤلاء الحمقى قد جمعوا بين مذاهب المبتدعة على تضادها وتباينها وتخطوا أوساط الامور الى طرفي الافراط والتفريط فهم جبرية بازاء المصالح العامة وقدرية تلقاء منافعهم الخاصة

وقد نظرت في التاريخ سير العلوم واختبرت حالتها اليوم فرأيت العلماء الباحثين في مسائل الجبر والقدر والكسب قصروا انظارهم على مفهومات هذه الالفاظ وتفلسفوا فيها ولم يلتفتوا الى ماتحدث هذه العقائد في الارادة من الآثار وما يتبع تلك الآثار من الاعمال وما ينشأ عن تلك الاعمال من ضعف أوقوة فينبهوا الامة عليه

ألفوا فيها المتون والشروح وعلقوا عليها الحواشي والتقارير فما زادت الامة تآليفهم الا حيرة واشكالا وكانوا كجواب الجاهل ينفذ أحدهم السير

سحابة نهاره وعامة ليله ثم لا يدري هل ازداد بسيره قرباً أو بعداً (سيفرد المنار مقالة مخصوصة لهذه المسألة)

واما الذين لم يبلغ الجهل منهم مبلغ انكار الوجدان والقول بالجبر الصراح فهم يعلمون ان الاخذ بالاسباب عملا واعتقادا ارتباطها بالمسببات بحيث لا تتخلف عنها اذا تمت شروطها ولا تحصل الا معها هو الحق وان انكشاف الخطوب على أيدي الآخذين باسبابها التي سنها الله تعالى لها لا يقتضي انهم عاندوا الارادة الالهية وكانوا هم الكاشفين لها من دون الله تعالى

فخجل المحتجون بالجبر عند هذا البيان واتفق القوم كلهم على البحث مع السائح العاقل في شؤون ترقية امتهم وعن الاسباب التي ينبغي الاخذ بها للحصول على هذه الامنية الشريفة . واجمعوا على ان يكون البحث على طريق السؤال والجواب لانه أدعى الى إلقاء السمع وتوجيه الفكر وأقرب الى التنبه والتبصر وان يكون السائح هو السائل لانه اعلم بحاج الامم لما أفاده العلم والاختبار ثم اذا اختلفوا في الاجوبة يحكمونه فيما شجر بينهم ويكون بقوله العمل وعليه الفتوى

فقال اني ملق عليكم مسائل متعددة في مواضيع مختلفة وكلها تتعلق بسعادة الامم وأطلب عليها كلها جواباً واحداً يؤدى بكلمة واحدة . فقالوا له يشبه ان يكون كلامك هذا من الالغاز والأحاجي فكيف السبيل الى حل معماه، وكشف مخباه، وكيف يكون الجواب عن الاسئلة في المواضيع المختلفة واحداً (ان هذا لشيء عجاب)؟

فقال لا عجب فان كل كثرة لابد ان تجمعها جهة وحدة فكما ان

الوحدة التي نسميها سعادة الامة لا تحصل الا بامور كثيرة ترجع الى شيء واحد وهو (سعادة الامة) كذلك وسائل هذه الامور الكثيرة التي منها تستمد مسائلي تؤول الى شيء واحد. «وسيلة ترجع اليها جميع الوسائل وسبب يجمع كل الاسباب» وهو الجواب الذي سأشرحه لكم ثم انشأ يسرد الاسئلة فقال

(س) ماهو الناموس الذي يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة ويحكم الالتصاق بين افرادها فيكون المجموع أمة واحدة وبماذا توجد الرابطة التي تجعل مدار هذا المجموع على محور واحد

(س) أي شيء يمحو من نفوس افراد الامة الاثرة والاختصاص بالمنافع دون قومهم ويثبت فيها حب الوطنية والجامعة الجنسية بحيث يرى كل واحد ان منفعته في منفعة أمته ومضرتها عين مضرته. بل ماهي الروح التي تنفخ في آحادها فتحييها بعد ممانها وتجتمع بعد شتاتها وتكون جسداً واحداً اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد فاني أرى هذا الروح هو المدبر لبعض الامم وكانه فقد من امتنا بالكلية فانتثر عقد اجتماعهم. وانحل تركيب بنيتهم. وتفرقت كلمتهم. ورزؤا بالتخاصم والتنازع. والتباغض والتحاسد. وأصبحوا و «باسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» وأنى يفقهون معنى هذه الحياة الجنسية. وسر هاته الجامعة الوطنية. وكيف تحصل لهم. وبماذا توجد فيهم. وانى يجتمعون في صعيد واحد مع اختلاف مشاربهم وتقطع وشائجهم

(س) اذا اعتقدت الامة بافرادها انحطاط المدارك وضعف العقول وعدم الاستعداد الفطري لاحتذاء الامم الاخرى فيما جاءت به من عجائب

الصناعات وما استنبطته من دقائق العلوم والفنون لانها شاهدت الآثار التي انتهت اليها وهي في غيبة عن مبدأها وكيفية نموها فانى يكون تنبيهها الى ما أودع فيها من القوى الطبيعية والقدر الوهبية الكامنة في أرواحها كـكمون النار في الحجران قدحته أورى ، وان تركته توارى ، وانه ليس عليهم في ابراز آثار هذه القوى الا استعمالها فيما خلقت كما استعملها الآخرون

(س) اذا تمكن في النفوس اليأس من التقدم والقنوط من الترقي لاعتقاد ان زمن التدارك قد فات وانه لا يمكن مجاراة المتخلف لمن بلغ الغاية وان كان الاستعداد واحداً . فعلت لذلك الايدي عن العمل كانما هي مشلولة . ووقفت الارجل عن السعي حتى كانها مقطورة . (أي محبوسة في المقطرة وهي خشبة مثقوبة توضع فيها ارجل المحبوسين) فبماذا تنزع الاغلال وتكسر المقاطر وتنعم تلك النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس وتندفع اندفاع الجياد القرّح الى طلب المجد المؤثل الذي تطلبه بحق وتجري فيه على عرق

(س) اذا حاول بعض أهل الثراء ان يحتذي شاكلة السابقين ويتلو تلو الشعوب المتمدنة فانشأ يقلدهم في أحوال معيشتهم التي انتهت بهم اليها طبيعة بسطة الملك وسعة الثروة فشيد القصور ونقش الجدران وزينها بالارائك والزرابي والسجوف والمصابيح وسائر أنواع الآنية والملاعون النفيس الذي يجلبه من بلاد تلك الشعوب . فكيف يمكن اقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تذفيف على جرح الامة واجهاز على حياتها وبه ينضب معين ثروتها على انه ليس لديها من أمواه الثروة الى بقية وشل . وان التقليد النافع انما يكون في خدمة المعارف والسير في طرقها التي سار فيها أولئك

وفي الاعمال النافعة التي هم لها عاملون

(س) كيف تحافظ الامم على اديانها ولغاتها وعوائدها النافعة اذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء . وكيف ظلت اللغة العبرانية محفوظة في ألسنة الاسرائيليين معما ابتلوا به من فقد السلطة والشتات في الاقطار وما رزؤا به من جور الحاكمين واضطهاد الظالمين . ولماذا فسدت ملكة اللغة العربية من ألسنة اربابها مع نمو عمرانهم وامتداد سلطانهم

تسمع ولدان اليهود في روسيا والمانيا واستريا وفرنسا وانكلترا واسبانيا وافريقية وأميركا يتكلمون بلسان كتابهم (التوراة) على نحو ما كان يتكلم به أباؤهم الاولون . ولم يصدهم عن حفظه معرفة لغات الشعوب الذين هم عائشون في بلادهم . وشيوخ العلم في مصر والشام والعراق والمغرب بل وفي الحجاز واليمن يكتفون بوجود لغة (القرآن) في مطاوي الكتب وبطون الدواوين

(س) كيف يمكن التفلت من اشراك العادات الرديئة وأحابيلها . والتفصي من عقل التقليدات المضرة التي أوقفتنا عن السير وأحدثت فينا قناعة البهم وبغضت الينا كل جديد وان كان فيه سعادتنا وقد استحكمت بتوالي الايام وكرور السنين . وقويت على سلطان العقل وارشاد الدين حتى اعتقد الآخذون بها حسنها وأنكروا على من أخل بشيء منها « ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » اما والله لو أن أجسادنا هذه تدبرها أرواح كارواح أباثنا الاولين لكنا نحن السابقين الى كل ما يسمى اختراعاً واكتشافاً وعملاً نافعاً

(س) اننا نرى كثيراً من الاخلاق والعادات لها وجهة للخير ووجهة للشر يجتني نفعها أناس ويصاب منها بالضرر آخرون . فكيف يتفرع عن الاصل الواحد فروع مختلفة وآثار متباينة . وبماذا اهتدى الاوربيون للانتفاع من اختلاف رجال العلم ورجال السياسة وتنازعهم وتبينوا من هذا الاختلاف والتنازع محجة الصواب وحقيقة الامر حتى كان نور الحقائق العلمية والمصالح السياسية لمعان البرق لا يظهر الا بين الايجاب والسلب

ولماذا كان الاختلاف والتنازع في الشعوب الشرقية حجاباً على وجه الحقيقة وغشاوة على عين البصيرة تضيع فيه المصالح وتندرس رسوم المنافع حتى كان تصادم أفكارهم تصادم القوارير

(س) ماهو الغاسول المطهر للاذهان من أقذار الوساوس والاوهام التي توقع في الخوف مما لا يخيف ورجاء ما لا يفيد وبماذا يكون ترميج (افساد السطور المكتوبة) ماسطر في ألواح النفوس من أساطير الخرافات أو محوه بالكلية . ورسم آيات الحكمة واثبات نقوش الحقائق على هذه الالواح الشريفة القدسية

(س) بما ذا يعرف المجد الصحيح من المجد الباطل والكمال الحقيقي من الكمال الوهمي فتحول مجاري نفقات الافراح والاحزان من الولائم والوضائم وما يتبعها الى التعليم والتربية ويستبدل تشييد المكاتب والمدارس الوطنية بتشييد القصور على القبور (الاحواش) الذي استن المصريون فيه بسنة «خوفو» و«خفرع» و«منكورع» الذين شادوا الاهرام لحفظ جثثهم الشريفة

(س) ما هو العلاج الذي يستأصل جراثيم الفساد والدواء القاتل

« لميكروب » الادواء الروحية الشافي من الامراض القلبية التي تولد عنها الآثام والموبقات

(س) متى تقل الامراض الجسدية ويتزين مجموع الامة ببرود الصحة الضافية ويلقون عن عواتقهم اسمال الامراض وأخلاق الاسقام ويقل فيهم فتك الاوبئة اذا لم يمكن محو هذه المصائب بالكلية

(س) بماذا تحصل الثروة للامم فاننا نرى بعض الشعوب استولى عليها الفقر المدقع فلا يوجد فيها من الاغنياء الا افراد قلائل والكثير منهم مائل الثروة بطرق مشروعة واعمال شريفة والسؤال انما هو عن ثروة الأمة من الطرق الشريفة المشروعة . ولو وزعت ثروة من ذكرنا على الامة بالتعديل لم تخرج من عداد الامم الفقيرة (قال السائل الحكيم) واذا قلتم زراعة . صناعة . تجارة . فاني لا اعتد ذلك جواباً بل هو يحملني على التفصيل بالقاء اسئلة أخرى في موضوع الثروة فأقول .

(س) ما الوسيلة الى تحسين حالة الزراعة بحيث تفيض الارض بالخيرات والبركات التي هي كنوزها الحقيقية . ولماذا كان أهالي فرنسا بل وأهالي زيلندا (جزيرة في البحر المحيط) أكثر ثروة زراعية من أهالي مصر بالنسبة لمساحة الارض مع ان أرض مصر أخصب تربة ورجالها أكثر جلداً على العمل وعندهم النيل الذي ليس له في زيلندا ولا في فرنسا نظير .

(س) ما الذريعة الى اتقان الصناعة وتوسيع دائرتها والتفنن في تنويعها بحيث تكتفي بها الأمة وتحفظ ثروتها عن اغتيال الاجانب لها وجعلها عالة عليهم ثم تكفي غيرها من الامم التي أصابها مرض الجهل والكسل فاقعداها عن الاعمال

(س) ماهي الطريقة للتصرف بأساليب التجارة التي عليها مدار الثروة الاكبر والتي هي من الصناعة والزراعة كالقوة المتصرفة من المعلومات والمدركات . أو كالشرايين والاوردة لدم الانسان والحيوان

(س) كيف تسني لافراد من طلاب الكسب الاجانب احتكار ماء النيل وماء نهر الكلب (نهر في لبنان تجره الى بيروت شركة اجنبية) كما تحتكر السلع وعروض التجارة وبيعه لاهل البلاد بالمال . ومن كان (لولا المشاهدة) يصدق ان الامة تنحط الى دركة لا يمكن للوطني معها ان يتناول جرعة من ماء بلاده الا اذا اقتضى الاجنبي منه ثمنها المعلوم عن رضى واختيار (أما وسر العلم والاجتهاد لو وجد مثل هذا الخبر في كتب تاريخ الامم القديمة لعد من هذيان القصاص المولعين بتلفيق الاكاذيب للاعجاب والاغراب)

(س) بماذا تحرز الامم القوة والمنعة وتعقد على ألويتها الغلبة والظفر وكيف استولت انكلترا على ممالك الهند وعلى استراليا والكاب والنيجر وكندا وكيف استولت فرنسا على بلاد الجزائر وتونس والسنغال ومدغسكر وأنام وكمبوديا وكوشين صين وتونكين وكيف استولت هولندا على كذا والمانيا على كذا

(س) كيف يسهل على نفر قليل الاستيلاء على شعب كبير يصرفونه في مصالحهم ويستخدمون افراده في منافعهم ويستعملونه كما تستعمل الدواب والانعام بل يديرونه كما تدار الآلة الصماء وهو لا يدري علة هذه السلطة ولا وقوف لافراده على حقيقة اسبابها ولعله لا يشكر فيها أيضاً كأنما فقد

كل احساس وشعور

(س) كيف أمكن للاميركانيين إلقاء السلطة الانكليزية عن عواتقهم وطرح أوزار سيطرتها عن كواهلهم واتحاد ولايات بلادهم تحت لواء واحد تستضيء بنجومه امم ويخشى من شهبه آخرون . حتى ان أوربا تحذر منه على مابقي لها في العالم الجديد وتتوقع تنفيذ قول مونرو « أميركا للاميركيين» وبالجملة

(س) ما هي الآلة الرافعة للمتطوحين في عوائير التعاسة والشقاء والمتدهورين في مهاوي الخذلان . وما هي المدارج التي ترقى فيها الامم الى المدنية الصحيحة والمعارج التي تصعد عليها الى مراتب الكمالات الصورية والمعنوية، من دينية ودنيوية، وماهو النور الذي يستضاء به في ظلمات الجهل والغباوة والمنار الذي يهتدى به في مهامه الحيرة ومجاهيل الخطوب ؟؟

فلما فرغت المسائل، وسكت السائل، وطلب ما عند القوم من الجواب ابتدر أحدهم فقال لاشك ان الامراء والحكام هم الذين يكوّنون بنى (جمع بنية) الامم وينفخون فيها روح الوحدة، وينشقونها نسيم الحياة الوطنية، ويمدون فيها جداول الثروة بما يمهدون من طرق الكسب ويحفرون من الترع وينون من المعامل والمصانع ويهيئون من الآلات والادوات الخ ما اشرتم اليه من أسباب السعادة

فرد عليه السائل قائلا اذا فرضنا ان الحكومة غنية مع فقر الامة وأمكنها أن تعمل كل هذه الاعمال فهل في استطاعة الحاكم أن يقتلع من نفوس الامة جراثيم الاخلاق الذميمة وينقي منها بذور العادات الرديئة التي تنجم عنها الافعال المضرة ويغرس فيها أشجار الاخلاق

الفاضلة والسجايا الجميلة التي تثمر الاعمال النافعة ؟ كلا ان من يلقي التبعة كلها على الحكام مخطىء في حكمه واني رأيت أكثر الامم الشرقية لا يرون لانفسهم جوداً الا بالحكام ويرون ان صلاح الامة وفسادها وغيها ورشادها وصحتها ومرضها وغناها وفقرها بل ومحياها ومماتها كل ذلك بيد الحاكم حتى كأن الحاكم بيده ملكوت شيء وهو يجير ولا يجار عليه وكأن هذا الوهم متسلسل فيهم بالارث من عهد من قال « أنا أحيي » وأميت وعهد من قال « أنا ربكم الاعلى » وجهلوا أن الحاكم ليس الا رجلا من الامة وان الحاكمية مازادت في فضائله ولا منحته قوة فوق القوى البشرية بل ربما أفسدت أخلاقه وأسقمت مداركه (كما شوهد في البعض) والصواب ان اصلاح الامة لا يكون من الحاكم نعم ان الحاكم اذا ساعده يكون أسرع سيراً وأقرب نجاحاً . ثم انبرى آخر للمجاوبة وقال

ان الطريق الوحيد لانهاض الامة من ضعفها وآفالة عثرتها واقامتها في مصاف الامم القوية انما هو تسليم ازمة أمورها الكلية الى رجال من سائر تلك الامم يقيمون فيها القسط ويرفعون لواء العدل والمساواة ويغلون أيدي المتسلطين عن التعدي ويجتثون شجرة الرشوة الخبيثة من أصولها ويعممون فيها الامن وينشئون المعامل والمصانع ويسهلون الطرقات ويقربون الابعاد بما يمدون من السكك الحديدية واسلاك التلغراف والتليفون ويوسعون دائرة الاكتساب بانشاء الشركات المالية التي هي أس جميع أنواع التقدم من زراعة وصناعة وتجارة وينشرون المعارف الصحيحة التي لا توجد الا في لغاتهم فلا يمضي على الامة أربعون سنة - حتى تنشأ خلقاً جديداً

فقال السائل وقد اضطربت نفسه وانفعلت روحه وتبيَّغ دمه حتى كاد يتفصد من وجهه

اذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفا كا

لقد أخطأ ظنك يا أخي واستحوذ عليك شيطان الوهم ولقد نثرت الملح على جرحي بجوابك هذا اما علمت ان ساسة تلك الامم الذين أشرت الى تسليم كليات الامور اليهم قد تربوا في بلادهم على حب أوطانهم ووقف حياتهم على نفع أمتهم وقد تطبعوا على ذلك عملاً فصار ملكة راسخة في نفوسهم تصدر عنها جميع حركاتهم وسكناتهم من غير روية ولا تكلف . وان جميع ما يبرز من أعمالهم مفيداً للامة التي يتولون اصلاحها في الظاهر لا بد ان يكون في باطنه منفعة لامتهم فان المنفعة هي القطب الذي تدور عليه رحى أعمالهم فلا ينشرون من المعارف في البلاد الا ما يشرب القلوب حبهم واعتقاد عظمتهم ويفسد على الاهلين لغتهم وعوائدهم وتقاليدهم التي كانوا بها أمة ممتازة عن غيرها مستقلة في وجودها

ولا يوسعون دائرة الكسب الا للعارفين باساليبه من أبناء طينتهم فتسهيل طرق الثروة حسية ومعنوية وتعميم الامن والضرب على أيدي المتسلطين كل ذلك وسيلة لتمكنهم في الارض وسد انباج الثروة عن أبناء الوطن وتحويل تلك الانباج والمجاري الى الآخرين

نعم ان الوطنيين يتمتعون منها بقليل من الراحة التي تزيد في كسلهم وتقاعدهم حتى يؤول الامر الى امتلاك الاغيار لاراضيهم الواسعة ويتخذونهم اجراء ومزارعين فيعلمون كيف دس لهم السم في الدسم حين لا ينفعهم العلم . سألت عما ينهض بالامم، فاجبتني بما يقذفها في تيهور العدم ويهبط

بها الى أسفل سافلين

ثم تصدى للجواب رجل ثالث فقال ان الجرائد الحرة هي التي تنبه أفكار الامة وتنير عقولها بنشر المعارف وترشدها الى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وتدلها على أساليب المدنية وتزعجها الى العمل بإثارة بالترغيب والتنشيط وطوراً بالترهيب والتحذير من عواقب التفريط وتحرك من نفوسها كوامن الغيرة التي تدعو الى المنافسة والمباراة الى غير ذلك من الفوائد التي لا تغرب عن علمكم

فقال السائل ان الجرائد وان كان لها الشأن العظيم عند الامم المدنية والاثر المشهود في سير مدنيتهم التي تعتبر الجرائد كالحداة له الا انها ليست هي الموجدة لتلك المدنية . فاذا لم يوجد في الامة سير الى المدنية الفاضلة فلماذا يكون الحداء . نعم ينبغي أن تنشأ عندنا جرائد لاجل الحث على الاجتماع وتعيين الغاية التي ينبغي أن تقصد والوجهة التي يجب ان تولى ثم الحث على السير الى تلك الغاية في الطرق الطبيعية التي سنها الله تعالى لها وهدانا الى سلوكها ثم الحداء الذي يسهل على السائرين احتمال المتاعب وقطع المسافة مع النشاط والارتياح

ولا أقول ان الجرائد هي المصلحة لحال الامة بل هي مساعدة على الاصلاح اذا صدقت وأخلصت وأفضل عملها ايصال أفكار الطبقة العاقلة من الامة الى سائر الطبقات تحت مبدإ واحد شريف فانما المدار على الوحدة كما أشرنا أولاً

ثم التفت الى القوم فقال هل بقي عندكم شيء من الاجوبة فاجابوا بلسان واحد لا وانا نطلب الجواب من حضرة السائل الحكيم

فقال ان الجواب الصحيح الذي قلت انه وسيلة لسعادة الامة تجمع كل الوسائل وسبب يرجع اليه جميع الاسباب هو « تعميم التربية والتعليم » وهذا اللفظ تلوكه الالسنة كثيراً الا ان معناه لم يعط حقه من التبصر والتأمل . فان كنتم في ريب مما قلت فاني مستعد لاقناعكم . وان أذعنتم ولم توجهوا كل قواكم العقلية والمالية للحصول على هذه الرغيبة فانتم العاملون على ضياع أوطانكم وخائنون أمتكم وملتكم

مجمل الاحوال السياسية

المعنا في المدد الماضي الى أمهات السياسة الحاضرة وتكلمنا على بعضها ووعدنا بالكلام على باقيها فيما يأتي من الاعداد وانجازاً للموعد نأتي على بيانها بالاجمال على الوجه الذي يوجب العظة والاعتبار مبتدئين بتمهيد في بيان الاستعمار الذي هو منشأ هذه الاحوال فنقول :

من طبيعة العمران البشري استيلاء القوي على الضعيف ومن هنا كان طلب الفتوح والتغلب طبيعياً في البشر . ولم يكن في العصور الاولى طريق للفتوح والتغلب الا الحرب العوان التي لم يلق الانسان أوزارها عن عاتقه في دور من الادوار ولقد اطبعت الانفس عليها بالعمل المتكرر حتى كادت تكون مقصودة لذاتها أعني الفتك المجرد عن ملاحظة المنفعة التي عليها مدار جميع أعمال الانسان . وأول تغيير مهم حصل في تاريخ الحرب تخفف ويلاتها وجعلها في ضمن دائرة معقولة ما جاء به الدين